لغز ساتي

عادة هندية ترسل الأرامل إلى المحرقة

مع جثث أزواجهن

التضحية بالنساء عند موت أزواجهن أو أسيادهن هي عادة قديمة مارستها معظم شعوب الأرض في فترة ما من تاريخها، وارتبطت هذه العادة المخيفة بالجوانب الروحية المتعلقة بمعتقدات ما بعد الموت حيث ان النساء كن غالبا ما يرسلن إلى حتفهن لمرافقة أزواجهن أثناء الرحلة إلى عالم الأبدية، ربما من اجل إمتاع الزوج وتسليته خلال الرحلة إذ ان الرجال سريعو الضجر!. في حين إذا ماتت الزوجة أولا فليس من واجب الزوج طبعا مرافقتها إلى العالم الآخر لا بل إن معظم الأزواج سيجدونها فرصة ذهبية للزواج من امرأة أخرى .. وإذا احتجت المرأة وطالبت بالمساواة فسيخبرها "رجال" الدين بأنها إرادة الآلهة وعليها التسليم والقبول بها!.

يتم تقييد الارملة وتجبر على الاحتراق مع جنازة زوجها

اغلب الحضارات القديمة مارست التضحية البشرية، ومنذ البداية ارتبطت هذه الأضاحي بالطقوس الدينية ومعتقدات ما بعد الموت. ففي مدينة أور السومرية وهى إحدى أقدم المدن السومرية وأقدسها، تقع في جنوب العراق وبلغت أوج عظمتها في الألف الثالث قبل الميلاد ويعتقد على نحو واسع أنها كانت موطن نبي الله إبراهيم (ع) الذي تنسب إليه الأديان

السماوية الثلاثة ومن هنا جاءت أهميتها وشهرتها في الغرب، وهناك بعض المنقبين مثل الانكليزي ليونارد وولي، المؤمن بحرفية نصوص التوراة، نبشوا أور نبشا بحثا عن أي دليل ذي صلة بإبراهيم الخليل ولكنهم خرجوا منها خالين الوفاض مثلما نبش المنقبين قبلها الآثار الفرعونية بحثا عن أي دليل عن النبي موسى (ع) والنبي يوسف (ع) ولكنهم لم يجدوا شيئا ومع هذا يخرج علينا بين الحين والآخر بعض الحالمين ليقولوا بأن بني إسرائيل هم من شيدوا الأهرام للفراعنة !.

مثلا تم اكتشاف عشرات الهياكل العظمية البشرية في المدافن الملكية لرجال ونساء يرتدون كامل ملابسهم الرسمية وقد وضعت إلى جانب بعضهم قيثارات وآلات موسيقية مما يدل على أن هؤلاء كانوا مغنيين وموسيقيين فيما كان الآخرون من سائسي الخيول والحرس والجواري، وقد تم قتل الجميع بالسم ثم حملت جثثهم إلى داخل القبر حيث رصت حول الغرفة المخصصة لدفن الملك والتي تقع في مركز المدفن. وهناك أيضا إشارات على ممارسة التضحية البشرية في الحضارة الفرعونية خلال حكم السلالة الأولى لكن يعتقد على نحو واسع أن الأشخاص الذين رافقوا الفرعون إلى قبره لم يقتلوا بل قاموا بالانتحار طوعا عن طريق تناول السم. الأوربيين أيضا مارسوا التضحية البشرية بأشكال مختلفة ذبحا وحرقا وغرقا، وقد وصف الرحالة العربي ابن فضلان أثناء رحلته إلى ارض الرس (الفايكنغ) في القرن العاشر للميلاد كيف أنهم كانوا يقتلون الجواري ليرافقن أسيادهن في رحلة ما بعد الموت (راجع رحلة ابن فضلان وحديثه عن ساحرة الموت التي كانت تقتل الجواري)، أما حضارات أمريكا القديمة

(الميسوامريكا) فقد كانت في طليعة الأمم من حيث عدد الأضاحي البشرية والتفنن في قتلها وسلخها وحتى التهام أجزاء منها، وكانت قلوب هذه الأضاحي تقدم للآلهة في طقوس دموية تقام على مدار السنة (راجع موضوع الازتك والأضاحي البشرية).

الحديث حول الأضحية البشرية في العالم القديم قد يطول ويحتاج إلى عدة مقالات للإحاطة به لكننا ذكرنا هذه المقدمة القصيرة لكي تعلم عزيزي القارئ أن عادة التضحية بالبشر لم تختص بها أمة دون أخرى بل إن اغلب شعوب الأرض مارستها وحتى الكتب السماوية احتوت على إشارات عنها مثل قصة نبي الله إبراهيم عندما أراد ذبح ابنه ليثبت إيمانه القوي وطاعته لأوامر الله وقد كاد أن يفعل ذلك لولا أن فداه ربه بقربان عظيم.

في الهند، عادة التضحية بالمرأة الأرملة مع زوجها هي عادة قديمة يقال أن الاسكندر المقدوني شاهدها وحاول منعها عند احتلاله للهند في القرن الرابع قبل الميلاد، كما ورد ذكرها في بعض كتب التراث العربي القديمة إذ ذكر لنا الرحالة ابن بطوطة بأنه شاهدها بنفسه أثناء زيارته للهند وانه اغشي عليه لبشاعة المنظر فحمله الناس بعيدا. وهذه العادة يطلق عليها تسمية ساتي (Sati) وتعني بالهندية "المرأة الطاهرة أو المقدسة" ويعتقد أن جذورها تعود إلى بعض المعتقدات الهندوسية القديمة حيث ورد أن زوجة الإله شيفا أحرقت نفسها أمام الحاضرين احتجاجا على أبيها الإله داكشا عندما تجاهل زوجها ولم يدعه إلى وليمة كبيرة أقامها لكبار الآلهة. وهناك عادة أخرى في تاريخ الهند تسمى جوهر قد يكون لها ارتباط وثيق بأصل وجذور الساتي، فعندما كان المحاربين الهندوس القدماء

يخسرون معركة ما، كانت زوجاتهم يقمن بالانتحار جماعيا لإثبات إخلاصهن لأزواجهن المقتولين في ساحات الوغى وللحفاظ على شرفهن من أن يدنسه العدو. ويؤمن الهندوس بأن المرأة "الصالحة" التي تلحق بزوجها الميت إلى النار سوف تحرر نفسها وعائلتها من معاناة عملية البعث والولادة من جديد أي عملية التناسخ .

عقيدة التناسخ : الهندوس يؤمنون بأن الروح خالدة لا تموت ولا تولد ولكنها ببساطة تنتقل من جسد إلى آخر وهذه العملية تتحكم فيها الكارما (Karma) أي أعمال وأقوال الإنسان في حياته السابقة (السيئات والحسنات) وعلى أساسها يتحدد الشكل الجديد الذي سيولدون به فالرجل الميت يمكن أن يولد كامرأة في حياته القادمة أو كحيوان أو طير، ويؤمن الهندوس بأن السبب الذي يجعل الأرواح تنتقل من جسد إلى آخر هو الرغبة في الحصول على الملذات والمتع الدنيوية، ورغم إن الهندوس لا يعتبرون الملذات الدنيوية إثما بحد ذاتها لكنهم يعتقدون بأن هذه الملذات سطحية لا تحقق السعادة والسلام للنفوس. لذلك بعد عدة مرات من الموت والولادة الجديدة تبدأ الروح تدرك محدودية السعادة التي توفرها الملذات الدنيوية وتبدأ تبحث عن السعادة عن طريق التمرينات الروحية (مثل اليوغا) حتى تصل إلى مرحلة عليا تنتهي فيها كل رغبة بالملذات الدنيوية وعند الوصول إلى هذه المرحلة الروحية السامية فأن الروح لن ترغب في الحياة مجددا ولن تنتقل إلى جسد جديد ولن تولد مرة أخرى وستتخلص من معاناة التناسخ وتذهب إلى الجنة الأبدية مع الآلهة. (هذه الكلمات هي

تبسيط كبير لمعتقدات الهندوس حول التناسخ وعقائد حياة ما بعد الموت والغرض منها هو مجرد إعطاء فكرة عن الموضوع).

لا توافق جميع الطوائف الهندوسية على نظام الساتي فهناك بعضها يحرمه لأنه يعتبر الانتحار حرقا فداءا لشخص آخر هو عملية مرفوضة وغير مقبولة، لكن هناك في نفس الوقت طوائف متشددة خصوصا في منطقة راجستان وفي بعض مناطق غرب الهند لازالت تحترم الساتي وتعتبره دليلا على إخلاص المرأة وطهارتها وشرفها، وهناك من يعتقد بان من العوامل التي ساهمت بشكل كبير في ترسيخ الساتي هو الفقر المدقع لبعض طبقات المجتمع الهندي، فالمرأة التي يموت زوجها لن تجد من يعيلها لذلك تخلص نفسها بالانتحار. والمفروض أن الساتي هو عملية اختيارية أي إن الأرملة ليست مجبورة على القيام به لكن للأسف في بعض المناطق لا تعطى الأرملة خيار الرفض وتجبر على الانتحار حرقا مع زوجها الميت. وحتى الزوجات الصغيرات اللواتي قد لا يتجاوز عمرهن العاشرة غير مستثنيات من تطبيق الساتي.

في العادة تقام المحرقة (Pyre) لموتى الهندوس خلال يوم من مفارقتهم الحياة، أي إن الزوجة لديها ليلة واحدة لتقرر تطبيق الساتي أم لا، وتلعب العوامل النفسية دورا كبيرا في هذا الاختيار فعادة ما يتوقع منها الأقارب والجيران القيام بذلك وهذا يؤثر على قرارها بشكل كبير، طبعا هذا على فرض أنها تملك الخيار حقا في الموافقة أو الرفض. وفي حال وافقت الأرملة على تطبيق الساتي فأنها تتعطر وتلبس أفضل ما عندها من ثياب أي الثياب التي لبستها في يوم عرسها لأن الساتي بحد ذاته يعني تجديد

عهد الزواج بين الزوج وزوجته. وبعد أن تهيئ الأرملة نفسها تؤخذ إلى المحرقة وغالبا ما تدخل إليها بمحض إرادتها وتجلس إلى جوار زوجها قبل إشعال النار وأحيانا أخرى تقوم بالقفز إلى داخل المحرقة بعد أن تضطرم فيها النيران وفي حالات نادرة تدخل إلى المحرقة وتجلس إلى جوار جثة زوجها ثم تقوم هي بنفسها بإشعال النار. وقد تسأل عزيزي القارئ ماذا لو دخلت الزوجة إلى المحرقة ثم حاولت الفرار بعد أن نشبت النيران في جسدها وأصابها الألم والجزع؟ وهذه الحالة ممكن أن تحدث فكلنا نعلم كيف إن الإنسان يناضل من اجل حياته بكل ما أوتي من عزم وقوة خصوصا عن الحريق والغريق، لذلك وتحسبا لهذه الحالة فأن الأرملة تربط أحيانا بالسلاسل لكي لا تتمكن من الفرار وهناك قصص عن نساء حاولن الفرار فقام الرجال المتجمعين حول المحرقة بدفعهن وضربهن بواسطة العصي الطويلة حتى تمكنوا من إرجاعهن إلى النار وفي بعض الحوادث قام الجمهور بإمساك الأرملة التي تمكنت من الإفلات والخروج من المحرقة ثم أعادوها ورموها مرة أخرى إلى داخل النار. وغالبا ما يكون العنف مصاحبا للحالات التي تكون الأرملة فيها مجبرة على تطبيق الساتي، فبعضهن يتم سحلهن إلى المحرقة بالقوة من دون الالتفات إلى صراخهن واستنجادهن وتوسلهن بالجمهور ويتم تقيد أطرافهن لكي لا يستطعن الفرار ثم تضرم النار، طبعا غالبا ما تموت الأرملة خلال فترة قصيرة لأنها ستختنق وتفقد وعيها بسبب الدخان حتى قبل أن تصل النار إلى جسدها، أما سيئة الحظ فستتلوى كالخروف المشوي حتى الرمق الأخير.

كما أسلفنا فليس جميع مناطق الهند تطبق الساتي بل إن هناك مناطق تمنع المرأة من تطبيق الساتي حتى لو أرادت هي ذلك وأحيانا يقوم الرجال بإخراجها من النار بالقوة قبل احتراقها عندما تفاجئ الجميع وتقفز إلى المحرقة على حين غرة. كما ان هناك ما يسمى بالساتي الرمزي، أي أن الأرملة تلبس ثياب العروس وتجلس قرب جثة زوجها الميت لكنها تغادر المحرقة قبل إضرام النار فيها.

منذ القرن السادس عشر حاول أباطرة المغول المسلمين حظر هذه العادة وكذلك قام الانكليز بمحاولة القضاء عليها عندما احتلوا الهند، واليوم فأن الساتي ممنوعة في كل أرجاء الهند بموجب القانون ويعاقب أي شخص يساعد الأرملة على تطبيق هذه العادة أو يجبرها على القيام بها، وبسبب المنع فأن حالات تطبيق الساتي أصبحت نادرة جدا لكن تحدث مع ذلك فأحيانا تقوم بعض الأرامل بالقفز إلى داخل نار فجأة قبل أن يتمكن الناس من منعهن وأحيانا يلاقي هذا الانتحار استحسانا كبيرا من الجمهور باعتباره تجسدا لأخلاق الزوجة الهندوسية الطاهرة والمخلصة. ففي عام ٢٠٠٦ قامت عجوز هندية بالقفز إلى النار أثناء جنازة زوجها واحترقت حتى الموت وقبلها بعدة أشهر رمت أرملة شابة بنفسها إلى داخل محرقة زوجها المشتعلة لكن أسرتها وأقاربها تمكنوا من إنقاذها قبل أن تحترق وتموت، وعام ١٩٨٧ قامت زوجة شابة بالقفز إلى محرقة زوجها وسط صيحات التشجيع والاستحسان من آلاف المشاهدين الذين تجمعوا لمشاهدة الجنازة وهو الأمر الذي دفع السلطات الهندية إلى اتخاذ المزيد من الإجراءات المشددة للقضاء على هذه العادة. وهناك حوادث أخرى تحدث

بين الحين والآخر وأحيانا نسمع قصصا عجيبة عن أرامل يعتصمن عن الطعام احتجاجا على منعهن من تطبيق الساتي.

ملاحظة : فى هذا السياق لا مهدف إلى انتقاد الثقافة والديانة الهندوسية أو السخرية منها فكل الأديان تحمل في طياتها بعض الطقوس التي لو جردناها من قيمها الروحية لوجدناها مدعاة للسخرية كما إننا نكن احتراما كبيرا لبعض الجوانب الروحية الجميلة والسامية في الثقافة الهندية مثل (اليوغا) .